مقـــــدمة

هذه محاولة أولى بالنسبة لى ، وربما ليست كذلك بالنسبة لغيرى ، ولا لهذا المجال الفكرى الاجتماعى التربوى الإسلامى .

فلقد سبقت فى مجال الفكر الإسلامى محاولات ، وربما سبقت أيضاً فى مجال الفكر التربوى الإسلامى محاولات ؛ هى كذلك على الأقل من وجهة نظر الذين تصدوا لهذه المحاولات .

ومحاولتنا التى بين أيدينا من هذا المنطلق قد تكون كمحاولة المبتدىء فى الطب الذى يجرى جراحة لأول مرة . والجراحة الأولى فى الجسم البشرى لا تكون على غير أساس علمى بالقطع ؛ لأن ذلك يودى بحياة الإنسان . ومن ثم فإن محاولتنا هذه وإن كانت الأولى بالنسبة لنا وإنها بُنيت على أساس علمى ما فى ذلك شك .

والفكر التربوى الإسلامى ــ الذى نحن بصدده ــ مجال واسع وعميق ، ولقد تجرأنا على البحث فيه مدركين صعوبة ومشاق الدراسة فيه . ولنا فى هذه الدراسة الابتدائية تحفظ نبديه هنا ؛ وهو أن هذه المحاولة الأولى لابد أن تكون فى حاجة إلى مزيد من الجهد ، وإلى تقبل كثير من وجهات النظر البنّاءة ، والنقد العادل الذى يساعدنا على أن يكتمل الوضوح لمـا نطرحه من قضايا عند إعادة طبع هذه الدراسة مرة أخرى .

والمحاولة التى نحن بصددها هى محاولة اجتهادية ، لتحديد ملامح الفكر التربوى الإسلامى فى ضوء متغيرات القرن العشرين . ثم هى أيضاً نقد للتربية المعاصرة التى يمارسها المربون فى البلاد الإسلامية حالياً . بل هى محاولة توضيح معالم على طريق التربية ، يمكن أن توجه الواقع التربوى ، وتغيره . كما توجه الواقع الاجتماعى وترشده . على اعتبار أن التربية هى مفتاح التغيير الاجتماعى .

ومن ثمَّ فإن الأسئلة التى تطرحها هذه الدراسة كثيرة ، سوف نعرض لها فى حينها ، ومجالها هو :

- الإطار الفكرى للتربية فى الإسلام •
- الأساس والركائز التربوية فى الإسلام •
- صياغة العناصر التربوية تحت لواء هذا الإطار وتلك الأسس •
- صياغة الأهداف •
- صياغة المنهج •
- إعداد المعلم •
- بناء الكتب المدرسية •
- الإسلام والتغيير الاجتماعى من منطلق التربية الإسلامية •

الاســـــلام قـــوة تربوية :

والمسلَّمة التى نبنى عليها بحثنا فى الفكر التربوى فى الإسلام مؤداها : أن للإسلام دوراً تربوياً فى المجتمع ، يتجلى فى كونه ناسجاً للإطار الفكرى للمجتمع ، ومحدداً لمعاييره القيمية والأخلاقية ، ومنظماً لحياته الاجتماعية بجميع أبعادها السياسية ، والاقتصادية ، والتعليمية ، والاجتماعية بمعناها العـــام والخاص •

والإسلام إذ يتحقق به كل ذلك ؛ فإنما يتحقق نتيجة له ما يلى :

١ ــ التماسك الاجتماعى :

فوحدة الفكر الإسلامى وتماسك إطاره ، وتحديده المعايير القيمية ــ والخلقية ، وتنظيمه للحياة الاجتماعية فى نطاق هذا الإطار ، وفى توجيه هذه المعايير ــ إنما يحقق كثيراً من الوضوح والدعم والدافعية للسلوك البشرى ؛ وفقاً لقرارات واضحة حازمة ، تستوحيها الجماعة من وضوح هذا الإطار ، ووضوح أحكامه لقضايا الحياة الإنسانية والاجتماعية المختلفة •

كما أن وحدة الفكر ، وتكامل إطاره يساعدان على أن تكون استجابات الناس فى مواقف الحياة المختلفة ــ إلى حد كبير ــ استجابات متشابهة ، ومتماثلة بوجه عام ، وإن كانت مختلفة ــ إلى حد ما ــ وفقاً لاختلاف إمكانات البشر وقدراتهم •

كما أن وحدة الإطار الفكرى والقيمى تحقق فهماً واضحاً ، ومتشابهاً إلى حد كبير فيما يتعلق بمفاهيم العمليات الاجتماعية المختلفة ، مثل : « الترابط » ، و « التعاون » ، و « التكامل » ، و « التنافس » . وتخلق فى نفس الوقت حوافز متشابهة ، وأهدافاً مشتركة • وكل ذلك يسهم فى خلق « الروح الاجتماعى » العام الذى يحرك الجماعة ، ويقوى نبضها ، وينسق إيقاع الحركة الاجتماعية بها ، وينظم سلوكها ، ويطبع إدارتها بطابع خاص • وكل ذلك يؤدى ــ بشكل طبيعى ــ إلى الوحدة الاجتماعية • والتماسك الاجتماعى •

٢ ــ تحديد ملامح المجتمع ، وذاتيته :

والإسلام بما ينسجه من قيم ، وما يحدده من معايير ، وما يصبغه من فكر ، وما يجسده فى النظم الاجتماعية وعناصرها من روح ، وما يشكله من أنماط اجتماعية داخل هذه النظم الاجتماعية المختلفة المكونة للمجتمع ، وما يخلقه لدى الناس من حوافز وإيجابيات للسلوك ــ إنما يحقق بذلك كله مجتمعاً متميزاً ، ذا ملامح إسلامية خاصة ، وذا ذاتية اجتماعية عبقرية معجزة ، تتحدى الأنماط الاجتماعية المعتادة ، فتقهرها ، وتتغلب على معوقات الحياة المختلفة التى تواجهها •

والشخصية البشرية فى داخل هذا الإطار تشق طريقها ضمن هذا الكل المنسجم ، فلا نجد منفراً ينفرها من معايشة الخبرات الحياتية الجماعية ، ولا تجد مبدداً لجهدها ولا مشتتاً لفكرها ، ولا ممزقاً لأبعادها النفسية ، فتستقر الشخصية البشرية ، وتتسابق مع غيرها نحو الأهداف الاجتماعية الكبرى ، والأهداف الإنسانية العظمى ، فترتقى الحياة ، وتتقدم ، وتعمر الدنيا ، وترفل فى ثياب فضفاضة من الرفاهية الاجتماعية ، والاقتصادية ، والنفسية •

٣ ــ تكامل الشخصية البشرية :

والشخصية البشرية إذ يتحقق لها هذا « المناخ » الاجتماعى الإسلامى ؛ فإنما تخضع لعوامله ومؤثراته الفكرية والسلوكية • وهى بذلك تنشأ وتنمو فى ظل هذه المحددات الاجتماعية • فتتنمط وفقاً لها ، وتتفاعل معها ، وتتكيف مع عملياتها الاجتماعية المختلفة ، وتكتسب نتائج خبراتها ، فيتحقق لها نمو متكامل من خلال هذه المؤثرات المختلفة •

وهذا النمو لا يتحقق بعصا سحرية ، وإنما تحققه وحدة الفكر ، وتكامل المعايير والقيم ، وعقلانيتها ، ومناسبتها لمكونات الطبيعة البشرية وفطرتها ، واتساقها مع المنطق البشرى ، والخصائص الإنسانية التى فطر الله الناس عليها •

فالتكامل ، والانسجام ، والاتساق الشخصى فى داخل الإنسان ، وبين داخل هذا الإنسان وخارجه إنما هى نتيجة طبيعية لهذه المؤثرات التى تفرزها القوى التربوية الإسلامية •

٤ ــ نضج العلاقات الانسانية :

إن المناخ التربوى يخلق وضوحاً فى العلاقات الإنسانية ، يحـــدد مساراتها ، ومجالاتها ، وأهدافها المختلفة •

كما يخلق اقتناعاً عاماً بها ، وبتفاعلاتها ، وبما تتطلبه هذه العلاقات وما تفرضه من سلوك •

ففى هذا المناخ التربوى تنتظم علاقات الإنسان بالإنسان من جنسه ومن الجنس الآخر . وتنتظم علاقات الإنسان بوالديه ، وأبنائه ، وجيرانه ، وحكامه ، كما تنتظم علاقاته بالكون وخالق الكون ، وبالحياة ، وخالق الحياة ، وبما وراء هذه الحياة ، بحيث ينشأ الإنسان ، وينمو فى ظل مجموعة متشابكة من العلاقات الإنسانية والاجتماعية ، والحياتية ، والإلهية التى تنمط سلوكه وشخصيته ، وتحدد أهدافه ووسائله ، وتنير له الطريق لارتياده لتحقيق هذه الأهداف •

وفى نطاق التماسك الاجتماعى ، وتحديد ذاتية المجتمع وملامحه ، وتكامل الشخصية البشرية ونضج علاقاتها يستقيم النسق الاجتماعى العام ، وينقسم الإنسان فى إطاره .

وفى ظل هذا الإطار ، وذلك الهدف ، وتلك الوسائل تتحدد اتجاهات التربية فى الإسلام ، والتنشئة الاجتماعية للأجيال الجديدة . كما تتحدد بالتالى أهداف التربية المدرسية ووسائلها . ذلك أن المدرسة هى المؤسسة التى ابتدعها المجتمع لتسهم فى تربية الناشئة على أهداف المجتمع واتجاهاته .

ومعنى ذلك أن التربية فى الإسلام هى المحدد الأساسى للإطار العام للتربية المدرسية وأهدافها . كما أنها القوة التربوية التى تحدد أنماط التربية فى جميع الوسائط التربوية والثقافية المختلفة خارج التربية المدرسية .

ومعنى ذلك أيضاً أن التربية الإسلامية للناشئين والشباب ــ وللإنسان فى كل موقع من مواقع الحياة ــ لا تقتصر على مادة بعينها ، أو على منهج دراسى بذاته « كالتربية الدينية » أو ما يسمى اليوم « التربية الإسلامية » فى المدارس ، ولا على مؤسسة اجتماعية بعينها « كالمسجد » مثلا أو « الكتّاب » ، أو « المعهد الدينى » ولكنها تتم من خلال المناهج الدراسية كلها . كما تمارس وتتعلم وتتمثل وتهضم فى جميع دور رمؤسسات التربية والتعليم فى المجتمع ، وفى جميع الوسائط الثقافية المختلفة ، مدرسية ولا مدرسية .

ويقتضى ذلك صياغة الأهداف التربوية العامة ، والخاصة فى ضوء إطار أهداف الفكر الإسلامى . وصياغة المناهج وتخطيطها ، بحيث تحقق أهداف الإسلام ، وتنسجم مع فكره ومنطلقاته وأسسه ومبادئه . وأن تبتدع الوسائل التى تيسر الوصول إلى هذه الأهداف .

وأن يكون كتاب الله وسُنّة رسوله ــ آيات ، وأحاديث وظيفية ــ فى كل مقرر ، وكل مادة ومنهج وكتاب . والخلاصة أن الإسلام إذ يتحقق به

ومن خلاله كل ما سبق وأكثر منه ، فإنه طريق ومنهج حتمى لحياة المجتمع الإسلامى ، به يتحدد إطار الحياة فيه ، وفلسفته ، ومنطلقاته ووسائله ، وتتحقق أهدافه وغاياته • كما أن الفكر التربوى الإسلامى بناء على ذلك هو الآخر محدد لا بديل له لإطار الفكر التربوى ومناهجه ، وفلسفته ووسائله ، وأهدافه وغاياته •

ومع أن مفاهيم الإسلام التربوية شاملة ومتكاملة ومبنية على الحقائق الصحيحة بشكل تتضاءل أمامه ، وتتواضع جميع الاجتهادات والنظريات البشرية ، ومع أن الاجتهادات البشرية العلمية الصحيحة ــ فى حد ذاتها ــ تحتويها التربية الإسلامية ، ومع أن تطبيق هذه المفاهيم التربوية الإسلامية والمبادىء القائمة عليها أنشأ مجتمعاً يعتبر نموذجاً للمجتمعات على مر التاريخ ، وربما سيظل مثالا تتطلع إليه البشرية فى كل عصر وفى أى زمان فى المستقبل ــ فإن معالم كثيرة من هذه النظرة التربوية الإســـلامية الجامعة الشاملة المتكاملة قد فقدنا أبعادها ، ومعالمها ، وأسسها ، فتهنا عنها ، وتاهت عنا • وأصبحنا ــ برغم إحساسنا بأننا نمتلك كنزاً ثميناً ــ نعجز عن اكتشاف هذه المفاهيم بشكل متكامل مترابط متناسق •

ولعجزنا ، وجهلنا هذا ، عجزنا عن أن نقدم هذا النموذج ولو فى شكل نظرى مقنع من جديد ، مع قوة اقناعه ونصاعة بيانه ، وسهولة ارتياده • ولعل من أسباب عجزنا هذا ما يلى :

أولا : لأن كثيرين من أساتذة التربية لم يقتربوا كثيراً من هذا المنهل الخصب للتربية الإسلامية ، مما ترتب عليه عدم الإحساس الكامل به وتذوق مذاقه الحقيقى • ومعرفة أبعاده ، وأعماقه ، واتجاهاته الحقيقية نظرياً وتطبيقياً ، وبالتالى فإنهم لم يستطيعوا أن يدفعوا عنه كل فرية تقال عنه بهتاناً ، بل إنهم لم يتحمسوا لتبنى نظرياته وتطبيقاته ، أو إدراك خطورة تأثير الاتجاهات التى نبتت فى بيئات ثقافية مناهضة له عليه ، ومحاولة الابتعاد عنها وعدم تبنيها •

ثانياً : أن كثيراً منهم أيضاً قد تلقى علمه وفكره فى إطار حياة ثقافية مغايرة ، إما شرقية وإما غربية • وبالتالى فإن جميع تفسيراتهم للمفاهيم الكلية والجزئية فى الحياة قد استحدثت من معالم الحياة الغربية ، فتكوّن فكرهم وإطاره وتفسيرهم لجزئياته من هذه المعالم الغربية • وبالتالى فإنهم ــ بحكم دافع البقاء ــ يجدون أنفسهم مدافعين عن هذه المعالم ، وما تستند إليه ، وإلا تعرضت كياناتهم العلمية ، أو الشخصية ، ــ خطأ ــ للهـــدم •

وفى الوقت الذى تعجز فيه الفئات المتصلة بهذا التراث الإسلامى عن أن تقدم النموذج بشكل مقنع ، فإن الغرب يقدم نماذجه الفكرية بشـــكل جذّاب ، وفى أحيان أخرى عن طريق يخاطب النزعات البشرية التى سرعان ما نرى إشباعاتها الحيوانية من خلالها ، فتنجرف فى هذا التيار الفكرى ، وربما فى الحياة التى يفلسفها هذا التيار الفكرى أيضاً •

ثالثا : أن هذا الفكر التربوى الإسلامى لم يجد حتى الآن من يحلله التحليل الذى يتكافأ مع عمقه وأصالته ، واتساعه وشموله وتكامله •

وعلى الرغم من أن المستشرقين قد استخرجوا منه واستفادوا بكثير من أبعاده وأعماقه ، فإنهم قد ابتعدوا بما اقتبسوه منه ، وابتعدوا بما أرسى لهم كثيراً من المفاهيم عن هذا الفكر وعن السّند له • وحاولوا أن ينســـبوه لأنفسهم ، كما حاول تلاميذهم وأتباعهم أن يسيروا فى نفس الطريق ، بل حاول أناس منهم أن يأتوا بمفاهيم ، مغايرة لخطه ومساره ، وأن ينشروها ويثبتوها فى مفاهيم العالم . وسرعان ما هُزمت هذه المفاهيم أمام عظمة المفاهيم الإسلامية وصدقها • ومن أمثال ذلك « النظرية الدارونية » ، فى تفسيرها للحياة الإنسانية وفكرة الخلق ، و « النظرية الفرويدية » التى فسرت السلوك الإنسانى بعامل الجنس فى الإنسان ، و «النظرية المادية الجدلية» التى فسرت السلوك الإنسانى والعلاقات الإنسانية والحياة الاجتماعية والسياسية بعوامل الإنتاج • ومن المعروف أن الفكر الإسلامى ، وتحقيقه كواقع اجتماعى بواسطة نظام تربوى شامل دقيق ، ليس شيئاً مثالياً خيالياً بعيداً

عن التحقيق ، كما كان الحال بالنسبة للفكـــر اليونانى كما ظهر فى فلسفة أفلاطـــون •

لقد تحقق المجتمع الإسلامى بنظامه التربوى بالفعل فى فترة من الزمان• وسيظل هذا المجتمع منارة تتطلع إليها البشرية فى جميع العصور محاولة تطبيقها • وسوف تظل المفاهيم التربوية فى الإسلام : مثلا ، ونماذج فكرية وتطبيقية تشرئب لها أعناق النظم التربوية عبر القرون فى المستقبل •

والبحث الذى نحن بصدده هو محاولة لمناقشة هذا الفكر التربوى الإسلامى لإبراز معالمه ، وإثارة لعاب الباحثين للبحث فيه ، بغية الوصول إلى أعماقه وسبر أغواره •